

الخطاب البصري للصورة الكاريكاتورية من المنظور السيميائي التداولي

The visual discourse of the caricature from the perspective semiotics

إسمهان عدوان

طالبة دكتوراه

جامعة الجزائر 2

البريد الإلكتروني: Doctorat.ismahanadouan@gmail.com

تاريخ النشر : 2019/06/03

تاريخ القبول: 2019/05/29

تاريخ الاستلام: 2019/05/13

الملخص :

نسعى من خلال هذه الدراسة الكشف عن جملة من العناصر التي تجعل من الخطاب الكاريكاتوري خطابا سيميائيا تداوليا، بالنظر إلى خطوطه وألوانه، ولغته البسيطة، وما تحمله من قدرة في تحميل رسالة يمكن أن تفهم بطريقة مباشرة أو عكس ذلك، تحاول تعرية الظواهر أو مناقشتها أو توجيه الرأي العام ضدها.. إن هذه مقارنة هذه الخطابات مقارنة تداولية تفرض علينا تجاوز حدود النظر إلى نصوص الخطاب على أنها مجرد دلالات ومضامين لغوية إلى ما فوق ذلك، إنه نشاط لغوي يحاول الكاريكاتير أن يعبر من خلاله عن أغراض ومقاصد تهدف إلى تصوير مواقف شخصية واجتماعية، بألفاظ وعبارات، باعتبار أن اللغة ليست وسيلة للتواصل الاجتماعي فحسب، وإنما أداة لتغيير الوقائع والتأثير في المتلقين.

الكلمات المفتاحية: السيميائية، التداولية، الكاريكاتير، الخطاب، الخطاب البصري

The visual discourse of the caricature from the perspective semiotics

Abstract:

We seek through this scientific study to uncover a set of elements that make the caricature discourse as semiotic discourse, in view of its lines, and its ability to carry a message that can be understood directly or conversely, that try to expose or discuss a phenomena or to direct public opinion against it.

The approach of these technical discourses is a pragmatic approach that forces us to transcend the boundaries of looking at the texts of the speech as mere linguistic connotations and contents, it is a linguistic activity in which the caricature tries to express the purpose and targets of portraying personal and social attitudes.

Keywords: Semiotics – Pragmatics – Caricature – Discourse

إشكالية: إذا كانت اللسانيات مؤهلة لدراسة التواصل اللفظي كما أثبت ذلك فرديناندي سوسير في كتابه "محاضرات في اللسانيات العامة" فإن السيميائية أو السيميولوجيا مؤهلة أيضا لدراسة الأنظمة التواصلية غير اللفظية، حيث إتفق كل من الباحثين بريتو واندريه مارتيني على أن العلامة تتشكل من وحدة ثلاثية الدال والمدلول، وهم يركزون على أن الوظيفة التواصلية تختص بالرسالة اللسانية المنطوقة، بل توجد في أنظمة غير لسانية أخرى كالإعلانات ومختلف الرسومات....، وبعدها كانت الدراسة السوسيرية تركز على آلية العلامة ووظيفتها التواصلية مع تجاهله المستوى اللساني الانجازي للعلامة وبالتالي إقصاءه للتداولية، من هنا كانت الانطلاقة لسيميائيات بيرس التي ترى أن البعد التواصلية ما هو إلا نمط خاص من أنماط الاتجاه الأمريكي، ولكي يكتمل مشروع البحث ينبغي أن تدرج باقي أنماط سيميائية بيرس ضمن السيميائيات، ومن ثم يبدو تدراك المعطى التداولي أمرا يتوقف على معالجة الجانب الانجازي للعلامة بكل ملابساته السياقية. فهي تبحث عن كيفية اكتشاف المتلقي مقاصد المتكلم، ودراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتحليله في الخطابات بما فيها الخطاب الكاريكاتوري الذي ألق بظلاله على جميع الأصعدة وأصبح قوة لا يستهان به في تعرية ونقل الواقع المعاش، حيث يحظى في هذا العصر باهتمام كبير لما له من تأثير على جوانب الحياة المختلفة السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية.... إلخ، ليصبح بذلك خطابا يجمع بين الصورة واللغة في رسالة إعلامية متعددة الأنساق (صور، ضوء، حركات...)، ومتنوعة الدلالات والإيحاءات المبتوثة في ثناياها والمتخفية بين حدودها المضمرة، وأصبح يفرض نفسه من خلال مميزات الصورة التي أضحت من أهم مقومات عملية الإبلاغ التي صارت فيها الشفرة في الدورة التواصلية مجموعة من الأنساق اللغوية وغير اللغوية "بصرية، سمعية".

وإشكالية هذه الدراسة.

- ما أهم المبادئ التي تستخدمها السيميائية التداولية في دراستها للخطابات البصرية بما فيها الخطاب الكاريكاتوري؟

- هل الاهتمام بالمعنى والإلمام بالمفاهيم اللسانية دون العناية بالصورة وكيفية أدائها يكفي من تحليل خطاب الصورة؟

1- سيميائية الصورة (اللساني والأيقوني): تعد السيميائيات من أهم المناهج النقدية التي وظفت مقارنة جميع الخطابات النصية، ورصد كل الأنشطة التبريرية بالتفكيك والتركيب والتحليل، بغية البحث عن أليات إنتاج المعنى وكيفية إفراز الدلالة، وذلك عبر مساءلة أشكال المضامين، مع سبر أغوار البنيات العميقة دلالة ومنطقا، وذلك من أجل فهم وتفسير عدد البنى النصية على مستوى البنية السطحية تركيبا وخطابا، فالسيميائيات تهدف إلى إستكشاف البنيات الدلالية التي تتضمنها الخطابات والأنشطة التبريرية بنية ودلالة ومقصدية، والبحث عن الأنظمة التواصلية تقصيها وتجريدا ووظيفة.

إستطاعت السيميائيات بوصفها علما حديثا، توفير فرصة دراسة الصورة على أساس أنها علم يختص بدراسة الأنساق التواصلية لللسانية وغير اللسانية كما حددها سوسير، مما دفعه إلى اعتبار اللسانيات فرعا من هذا العلم الأعم الذي يدرس حياة العلامات داخل الحياة الإجتماعية لهذا العلم الذي قد يصير فرعا من علم النفس الاجتماعي ومن ثم علم النفس العام، ومن هنا ينظر الى الصورة على أنها نسق مؤهل لإنشاء الدلالة كغيره من الأنساق، ومن ثم الإستعانة به في عمليات التواصل¹

فالتعريفات التي وردت عن السيميائية تعني كلها العلامة أو الدليل وبالتالي فإن موضوع السيميائية يتمحور حول العلامة والتي تتكون من وجهين مرتبطين ببعضهما البعض ارتباطا قويا هما: الدال والمدلول وبالجمع بينهما يتكون المعنى.

إن الصورة تشمل على علامات ورموز وقواعد ودلالات لها جذور في التمثلات الاجتماعية والفكرية السائدة في المجتمع، وتكمن سيميائية الصورة في فهمنا لهذه الرموز والقواعد والدلالات الموجودة بالصورة، وبالتالي إمكانية قراءتها ومعرفة دلالتها، أو بمعنى آخر التعرف على سيميائية الصورة.

وهناك قاسم مشترك بين اللغة والصورة ويتمثل في الدال والمدلول والرسالة، في حين هنالك أيضا فارق كبير بينهما يتمثل في إنفراد اللغة الطبيعية بالخاصية الصوتية التي تجبر الرسالة اللغوية على الاشتغال في الزمن، بحيث يستحيل خروج وحدتين صوتيتين في نقطة زمنية واحدة ضمن السلسلة الكلامية. أما الصورة فتظهر كخطاب حامل لمجموعة من الرسائل متزامنة الحضور على الصفحة².

- توصف السيميائيات بأنها العلم العام لكل الأنساق التواصل اللسانية وغير اللسانية، فهي

بهذا نشاط معرفي بالغ الخصوصية من حيث أصوله وامتداداته، ومن حيث مردوديته وأساليبه التحليلية، له علاقة بمجموعة من الحقول المعرفية مثل: اللسانيات والفلسفة والمنطق والتحليل النفسي والأنثروبولوجيا، كما أن موضوعها غير محدد في مجال بعينه، وإنما السيميائيات أداة لقراءة السلوك الإنساني في مظاهره المختلفة، بدءا بالانفعالات البسيطة ومرورا بالطقوس الاجتماعية وانتهاء بالأنساق الايديولوجية الكبرى³

من هنا، تعد سيميائيات بيرس نموذجا مناسباً جداً لتحليل الخطابات البصرية ودراسة معطياتها الثابتة وبخاصة ذات السمة بالأيقونة الخالصة، ودراسة المعطيات المتحركة (صور السينما والتلفزيون والصور المتحركة)، ودراسة المعطيات البصرية اللغوية (الخطوط، التنظيم الطباعي للصفحة وكذا أنظمة التعبير الاتفاقية الأخرى (نظام الدور، التمثيل البياني للمعطيات)

- يقول بيرس إن الطريقة الوحيدة لتبليغ الأفكار هي عبر الأيقون وكل الطرق المباشرة لتبليغ فكرة ما يجب أن ترتبط من أجل تأسيسها باستعمال الأيقون وتبعاً لهذا، فكل اثبات يجب أن يتضمن أيقونا أو مجموعة أيقونات، ويجب أيضاً أن يتضمن علامات لا يمكن تفسير دلالاتها إلا عبر الأيقون⁴

- إن افتراض منهجية متكاملة لتحليل الرسائل البصرية الثابتة، تبدو معقدة وصعبة، وعلى القاريء، أن يكون مجهزاً بترسنة من الأدوات الإجرائية التي تمكنه من إكتشاف خبايا الصورة، لأن شروط إعداد وتكوين واستقبال هذه الرسائل تشترك معارف وثقافات من النوع التاريخي، والاقتصادي والسياسي.

لذا إنجر مسألة الصورة الفوتوغرافية من خلال المقاربة السيميولوجية الحديثة هي ليست جزءاً لدوالها التقريرية بل عليها أن تبحث عن المدلولات الإيحائية للوصول إلى النسق الأيديولوجي الذي يتحكم في هذا النوع من العلامات، وهذا ما يسميه بارث "الاسطورة"⁵ وهي عنده أيضاً عمل بين السلطة المتحركة في الصورة لأن لها بعدين ملتصقين تقريرياً وتضمينياً، فإذا كانت اللغة نتاج تواضع جماعي فهناك أيضاً لغة الصورة متواضع عليها تشمل علامات وقواعد ودلالات لها جذور في التمثلات الاجتماعية والأيديولوجية السائدة، فتصبح القراءة إنتقالاً من مستوى إلى آخر، أي من نسق إلى نسق أخروداخلهما من العلامة كشكل ومن ثم إلى المدلول كمفهوم وهكذا ودواليك.

ومستويات قراءة الصورة البصرية تختلف من مجتمع إلى آخر، أولاً حسب المرجعية الثقافية لكل من هما، ضف إلى هذا أن القراءة في حد ذاتها مشروطة بانتقال القارئ للصورة من المستوى النصي التقريري إلى المستوى التضميني، وهذه العملية الإدراكية في حد ذاتها "ليست خالية من أي ضغط ثقافي أو اجتماعي، لأنه من أجل التعرف على شيء مصور، يجب قبل ذلك أن نعرف هذا الشيء، بمعنى أخريكون جزء من التجربة العملية، وانطلاقاً من اللحظة التي نتعرف فيها على الشيء المصور ليست فقط على مجموعة من الخطوط والألوان، وإنما سلوكيات يتطلب منا قراءة هذه الصورة بما نحمله من معاني وخلفيات ثقافية.

إن ما ينطبق على الصورة الألسنية قد ينطبق على الصورة البصرية إلا أن السيميائيين خلصوا إلى أن الثانية قد تحمل من اللبس أو الغموض الراجع إلى الخيال الاجتماعي، وهو ما يتسبب في عدة قراءات بالنسبة للصورة الواحدة، وعموماً فإن قراءة الصورة البصرية تخضع لعدة مستويات:

1-1- المستوى التعييني: يمثل الانطباع الأولي بمجرد التعرض للصورة المرسلّة إذ لا يتعدى مستوى الإحاطة بمحتويات الصورة بشكل عام، فالصورة كرسالة مرئية تحمل العديد من الارشادات المرئية وهذه الاشارات المرئية كما هو الحال للإشارات الألسنية الناتجة عن اتحاد بين الدال والمدلول، فالدال يمثل في شيء مرئي كرسماً مثلاً الخطوط والأشكال لحصان على ورق أما المدلول فهو مفهوم الحصان.

1-2- المستوى التضميني: يعرف على أنه ما وراء الصورة، إنه مستوى القراءة الرمزية أو مستوى التفكيك والذي يتوقف حسب "فاستون باشلار" على الخيال النشط المنتج المحرف للصور الثابتة وهو أفضل حليف للتأويل.

1-3- المستوى التقريري: يحاول فيه الإنسان تغيير الصورة وتأويلها وذلك بالنظر إلى عناصر الصورة بشكل أدق محاولاً فهم العلاقات بين عناصرها المختلفة، والربط بينهما كوحدة مرجعا إياه إلى المعاني التي قد تتداعى في خاطره.

يهيمن كل هذا أن الصورة كما أشارت إلى ذلك الباحثة فايزة يخلف "علامة أيقونية مبنية على علامة متشابهة نوعية بين الدال والمرجع، أو بين الموضوع وما يمثله، أنها الدليل الذي يقلد أو سترجع بعض خصائص الموضوع الأصلي الشكل، الإبعاد الألوان، نسيج، وكل ما يستوعبه معنى الصورة المرئية، فهي معطى عام يتجاوز الاستعمال الشائع للكلمة الذي يقصدها على الصور

البصرية ويحسبها عند حدود التلفزيون، الرسم، السينما، الصور الفوتوغرافية، الفنون، الجميلة، لأنها يمكن أن تدل على نسخ وجودية أخرى، كصورة حضور الذات، وصورة العلامة، والصورة الذهنية، وكل منهم شكلي يمكن أن يتحول إلى هيكل بصوري⁶.

2- السيميائية التداولية: إن ربط علاقة اللغة كنظام من العلامات السيمائية بظروف الاستعمال يستوجب فهم الكيفية التي تعمل بها هذه العلامات اثناء العملية التداولية، من حيث وحدات معنوية منسوقة، فمن أحوال تخاطبية يقتضيها السياق والمقام، ولا شك ان مثل هذا التصور يمكن الدارس من رصد المجالات والعوامل المنتجة للظروف المحيطة بالعمليات المناسبة لاستراتيجيات التخطيط والسياق مع النصوص، إنشاء أو تداول، من خلال منظومة الشفرات الأولية والثانوية المشتركة بين المؤلف والمتلقي، وذلك في ضوء مبادئ التحليل التداولي السيميائي وإجراءاته الكشفية، لاسيما وأن العلامات معاني ودلالات، وأن العلامة كما ينقل موريس بيكام عن الفرنسيين، " تريد أن تقول شيئاً ورغم ذلك ليس باستطاعتها ان تقول شيئاً إلا بوجود شخص يستقبلها، ويستجيب لما تريد قوله، وما لم تتوفر الإستجابة من جانب شخص ما، لا توجد دلالة أو معنى"⁷

تعتبر التداولية آخر مولود للسانيات، وهي تسعى الى الإحاطة بالدلالة الكامنة في النص وفي نفس منتجة ومتكيفة، وفي عناصر السياق المختلفة المحيطة بعملية انجازه وأدائه، والتداولية اللسانية من أهم المفاهيم الحديثة التي شدد انتباه الباحثين لاسيما في العقود الأخيرة.

وفي الدراسات اللسانية تهتم التداولية بالجانب اللساني، حيث تهتم بدراسة اللغة في علاقتها بالسياق المرجعي لعملية التخاطب، وبالأفراد الذين تجري بينهم تلك العملية التواصلية، ويرجع أول استعمال لمصطلح اللسانيات التداولية الى الأمريكي تشارلز موريس ويقصد بها كل ما يتعلق بمظاهر استعمال اللغة وخصائصها، أي الحوافز لنفسية للمتكلمين وكذا النماذج الاجتماعية وموضوع الخطاب غير ذلك، في مقابل ذلك المظهر التركيبي الذي يعني بالعلاقات التركيبية الشكلية والمظهر الدلالي الذي يعني بالعلاقات القائمة بين مدلول الوحدات اللغوية والواقع⁸، ويعود الفضل في وضع مصطلح التداولية الى الأستاذ المنطقي والفيلسوف المغربي الدكتور "طه عبد الرحمان" منذ سنة 1970 أي بعد حوالي 32 سنة من أول تعريف لها في الغرب من طرف شارل موريس في 1935. وقد حظي مصطلح التداولية بالإجماع والتداول بعد ذلك.

وتعتبر السيميائية إحدى الحقول المهمة التي نشأت في أحضانها التداولية، ففي تعريف تشارلز

موريس، للدولية أكد أنها جزء من السيميائية وتمثل إحدى مكوناتها، تهتم بدراسة العلاقة بين العلامات بين مستعملها أو مفسريها "متكلم سامع قاريء، كاتب" وتحديد ما يترتب من هذه العلامات حيث حدد أبعاد السيميائية في ثلاث أمور هي⁹:

علاقة العلامات بالناطقين بها وبالمتلقي، وبالظواهر النفسية والاجتماعية المرافقة لاستعمال العلامات وتوظيفها، وذلك هو البعد التداولي الذي تهتم به التداولية. علاقة العلامات فيما بينها، وذلك بعد تركيب يهتم به علم التراكيب.

- إن الحديث عن السيميائية والتداولية يطرح على الدارسين جملة من التساؤلات تستدعي رصد التيارات اللسانية التي تقف وراء البرامج العلمية الكفيلة بفهم النشاط اللغوي في علاقته بالموضوعات السيميائية، التي يعبؤها المتكلم لإقامة التواصل مع المتلقي، ومن هذا المنطلق تصف التداولية استعمال المتكلمين للأدلة اللغوية، ومن هذا المنطلق تصف التداولية استعمال المتكلمين للأدلة اللغوية بهدف التأثير في الآخرين¹⁰ وكذا بهدف تحقيق مقاصدهم التواصلية، وفي إطار هذا التوجه العام للتداولية، تعددت زوايا النظر واختلف أصحابها في مسألة الاقتراب من الفعل الكلامي.

-إن الموضوع السيميائي يهتم بالفعل التلفظي ويبرر وجود هئتين هما الالفاظ والمفوض له، وإذا كان التلفظ هيئة لسانية وسيميائية يفترضها منطقيا المفوض وتظهر أثارها في الخطابات، فإن موضوع السينمائي يستعمل للدلالة على كل مجموعة كيفما كان نوعها "جملة خطاب سياسي رواية لوحة صورة فوتوغرافية....الخ"، وكيفما كانت أشكال التعبير وأنواع التجلي سمعية بصرية ذوقية شمعية لمسية، والتي قد تتواجد في سيميائيات تسمى "تأليفية" على نحو نلاحظ ذلك في السينما التي تشتغل على البصري والسمعي.

السيميائية وتحليل الخطاب البصري:

تعد الخطابات البصرية الأنساق السيميائية الأكثر حضوة بإهتمام السيميائيين المنظرين والممارسين للتحليل التطبيقي على الخطابات، ذلك لأنها تقدم الخطاب الأكثر وضوحا فيما يتعلق بتمظهر دوالها، من خلال صفته التعيينية المرئية، وهذا ما يحقق حالة الانفصال التام في العلامة البصرية بين شقيها: الدال والمدلول، هذا وقد مثل الاستثمار الهائل لها في الفترة المعاصرة أوج الاستعمال السيميائي اعتمادا على درجة التأثير القصوى، بناء على نسبة اتلقي العالية كما وكيفا للخطابات البصرية عند الانسان بكل فئاته العمرية وطبقاته الاجتماعية

وأحواله النفسية، بل ومستوياته الثقافية ومراتبه العلمية. وللصورة اليوم مداخلها ومخارجها، لها أنماط للوجود واناط للتدليل، إنها نص، وكل النصوص تتحدد باعتبارها تنظيمًا خاصة لوحداث دلالية متجلية من خلال أشياء أو سلوكات أو كائنات في أوضاع متنوعة، إن التفاعل بين هذه العناصر وأشكال حضورها في الفضاء، وفي الزمان يحدد العوالم الدلالية التي تحيل بها الصورة.¹¹ فالصورة أيضا تعبير عن الرؤى المختلفة، ودلالاتها ومعانيها وتأثيرها، وكيفية النظر إليها بوصفها رموزا، فهي تعرف أيضا منظومة متكاملة من الرموز والأشكال والعلاقات والمضامين والتشكيلات، أما اقتران الصورة بالأيقونة فيمكن في إخضاعها لنسق معين بغية الوصول إلى تأويل يحيل إلى خصوصية سيميائية للعلامة بصفة عامة والبعد الأيقوني للصورة يتضمن جدلية المرئي واللساني يتجاوز حدود النزعة الثنائية التي تحدث عنها سوسير.¹² أما رولان بارث وريث المدرسة السيميولوجية مع فرديناند سوسير، فتتزع السيميولوجيا عنده إلأى دراسته، "كل أنساق العلامات مهما كان جوهرها، وأيا كانت حدودها صوتا وحركات وموسيقى وأمتعة" objets "بالإضافة إلى الظواهر الجوهرية المعقدة التي توجد في الأشكال الإحتفالية والبرتوكولية أو حتى المشاهد الفرجوية ، بما هي أنساق دلالية في حدها الأدنى، إن لم تشكل لغة قائمة بذاتها".¹³

فالسيمياء تدرس العلاقة اللغوية والعلامة غير اللغوية وهي هنا تتمثل في القارئ بوصفه عنصرا فعالا في الخطاب، فهو بعلاقة مع النص ،ومع المنتج قصد التواصل والإبلاغ عن طريق مؤشرات غير لسانية ينتهيان إلى شكل إبلاغي ذي وظيفة اجتماعية.¹⁴

وهنا يظهر المتلقي في الخطاب في صورة القارئ الضمني الذي يمثل العلامة غير اللسانية في الخطاب، فقد أوجدته السيمياء كونه يمثل عنصرا أساسيا في الخطاب لأن غيابه يجعل الخطاب في حالة كمون، ومن ثم يغدوا القارئ في فعل القراءة يمثل القطب الجمالي للعمل الإعلامي ، بينما المؤلف يمثل القطب الفني فيه، ولهذا يعد القارئ مشاركا في انتاج الخطاب فقد أصبحت السلطة للقارئ، لأن القراءة كما يقول إيزر: "izer"، تعطينا الفرصة لصياغة ما لا يصاغ¹⁵. وتستعمل الصورة المرئية مجموعة من الآليات البلاغية والبصرية بغية التأثير والإمتاع

والإقناع، وتمويه المتلقي، مثل التكرار والتشبيه والكناية، المرسل الاستبدال الجنس، الإضمار...، والتشكيل البصري، وعلى العموم يستوجب تحليل الصورة سيميائيا أن نصف

الصورة على مستوى الإطار والمنظور والعتبات، ومقاربتها ما يكونو لوجيا "Econologie"، ودراسة مكوناتها البنيوية تحليلًا وتأويلاً والتركيز على العلامات الشكلية والبصرية واستقراء العلامات اللغوية واستكناه العلامات الأيقونية، مع البحث في المقاصد المباشرة وغير المباشرة، ويشغل آليات التأويل استدعاء المؤؤل الدينامي، بتتبع عمليات السيموزيس "التدلال" والانتقال من التعيين إلى التضمن مع الانتقال أيضا من القيم الأكسيولوجية المجردة المحايدة إلى القيم الأيديولوجية بالمفهوم السيميائي.¹⁶

وهكذا تستوجب المقاربة السيميائية دراسة الخطاب البصري من خلال الانطلاق من مستويين، مثل المستوى اللغوي والمستوى الأيقوني إلى جانب المستوى التداولي الذي يهتم بدراسة المقاصد المباشرة وغير المباشرة في الرسائل البصرية.

إن خطاب الصورة كما يرى "جون لوك غودار" يحتوي على جانبين متعارضين ومتكاملين، هما الجانب الدلالي "ما يقال"، والجانب الجمالي أي ما يتضمنه الخطاب دون قوله بشكل مباشر، بل منغرس في ثنايا الخطاب ورموزه الموحية. ولأننا نعيش في عصر تعدد الصورة إحدى سماته نجد أن الصورة الصحفية أصبحت عنصرا له وظيفة هامة في الصحافة وليس مجرد شكل جمالي يزينها، وأصبح القارئ العادي لا يقتنع بتلقي الخبر بالكلمات، بل يريد أن يعرف الصورة التي حدث بها هذا الخبر، إن عرض مجموعة من الصور لأي حدث ذي أهمية إخبارية يساعد على التأكيد البصري لهذا الحدث.¹⁷

فالصورة تصحب الخطاب، لأنها من المفروض أن تفهم بسرعة أن يفهمها أكبر قدر من المتلقي، فهي وسيلة إيضاح مساعدة على الفهم لأنها تتميز بنسق أيقوني، خاص قد يجعلها تصل إلى المعنى من أقرب مرمى، فتقدم للمتلقى خدمة مهمة جدا لأنها تكثف من فعل التبليغ، وبذلك تتسلط على الحساسية الماثرة لديه، وتخطبه بطريقة مختلفة عما تخاطبه به اللغة، فتعمل على إيقاظ الإنسان الذي يرقد في أعماقه.

سيميائية الصورة الكاريكاتورية

إن الإنسان علامة وما يحبط به علامة، وما ينتجه علامة، وما يتداوله أيضا علامة، وخلاصة أن لا شيء يفلت من سلطان العلامة، ولا شيء يمكن أن يشتغل خارج النسق الذي يحدد له حجمه وامتداده وعمقه، كما لا يمكن أن يوجد شيء داخل هذا العالم حرا طليقا يحلق في

فضاءات الكون لا تحكمه ضوابط أو حدود، ولا يحد من نزواته كنسق، أن كل شيء يدرك تحقيقه بصفته علامة ويشغل كعلامة، ويدل باعتباره علامة.

ومفهوم العلامة لا يتوقف عند المعطى اللساني، بل يشمل كل أنماط الترميز الثقافي التي تتخذ لها أشكالاً متباينة في التجلي، وتتوسل بوسائط أخرى غير الوسيط اللغوي في الظهور والاشتغال، وتضع مجتمعة لحمة التداولات الرمزية في المجتمع، فعلى أساس العلامة تكون المجتمع وانتظمت بنياته وأنساقه، وتشعبت علاقاته وسيظل وجود المجتمع رهينا بوجود
العلامات¹⁸

ولهذا فإن السيميائيات في تصور "بورس" ليست إضافة جامدة تدرج أنواع العلامات في خانات قارة بشكل نهائي، إنها العكس من ذلك ترد كل الانساق إلى حركية الفعل الإنساني، إنها تجعل من الإنسان العلامة وتجعل منه صانعا للعلامة وتقدمه كضحية في نفس الوقت، ولكنها تضع هذا العالم للتداول باعتباره أنساق غير قابلة للوصف.

فلماذا فإن دائرة العلامات تتسع لتشمل كل الموجودات، بل إن الواقع ليس كذلك إلا في حدود مثوله أماننا كعلامة، فلا يمكن تصور إدراك حقيقي يجعل من الموجودات كيانات مفصولة عن الذات التي تدركها" فإذا قلتم بأن هذا الموضوع موجود في استقلال عن كوني أفكر فيه، فإن كلامكم لا معنى له "بورس".

فالإنسان مهد العلامات، وهو منتجها ومستهلكها والمروج لها، فلا شيء يوجد خارج مدار ترسمه العلامات من سيرورات دلالية لا يمكن أن تقف عند حد معين، فالمعنى موجود في العلامات والعلامات وحدها هي السبيل إلى إنتاج الدلالات وتداولها¹⁹.

والسيميائيات كما صممها سوسير "عبارة عن: "علم يدرس حياة العلامات في قلب الحياة الاجتماعية والنص الذي يتلى دائما: "اللغة نسق من العلامات المعبرة عن أفكار وهي لهذا تقارن بالكتابة وبحروف البكم، الصم، وبالطقوس الرمزية، وبعبارة أخرى الأداب العامة، و بالعلامات العسكرية إلى آخره إنها فقط ذات أهمية أكبر من كل هذه الأنساق²⁰.

وبعد المدخل السيميائي من أهم المداخل التي تصلح لتحليل الصورة لأي الخطاب الكاريكاتوري سواء في نسقه اللساني أم في نسقه الأيقوني، وتتوسع فيه دراسة العلامة لتشمل العلامة اللسانية وغير اللسانية، ولذلك تعد السيميائية في منظور بيرس "Peirss"، مدخلا منهجيا مهما في دراسة الخطابات

البصرية ومنها الصورة الكاريكاتورية التي تحتوي على علامات كثيرة ومتنوعة كاللون، الإضاءة، واللغة الرمافقة للصورة، ولابد من الإشارة هنا إلى أن هذه المداخل مترابطة إلى الدرجة التي يصعب الفصل بينها، فنرى تداخلا واضحا بينها وبين المدخل التداولي الذي يبحث في استنطاق ودراسة سياق العلامة.

وحسب السيميولوجيون الصورة الكاريكاتورية حامل للمعنى والاتصال في نفس الوقت، ونجاح العملية الاتصالية التي تؤديها الصورة يتوقف كثيرا على متلقيها أو قارئها، أو يقوم هذا الأخير بتأمل الصورة ثم يبحث في المعنى الحقيقي لها. وبالتالي فإن الصورة لها المعنى الخفي الذي ندركه بمجرد ملاحظة الصورة وكذلك المعنى الخفي الذي يتطلب منا الغوص في تحليلها وفك رموزها²¹.

والصورة الفتوغرافية حسب رولان بارت ذات استقلالية بنيوية، تتشكل من عناصر منتقاة ومعالجة وفق المتطلبات المهنية والجمالية والأيدولوجية، حيث تضيف لها بعد تضمينها لتصل للمتلقى الذي يكتفي بفهمها، وقد يعيد التفكير بقراءتها بقدر ما يمتلك من مخزون الثقافة، ومن المعروف أن الصورة على مر العصور مرتبطة بالتطور التاريخي، والذي يعيننا هنا هو ام مسائلة الصورة الفتوغرافية تهدف لاستخراج التمثلات الذهنية والتي تتحكم في العادة بالسلوكيات اليومية للإنسان في مجموعة القيم التي ينتجها²².

وما دمننا في سياق التواصل غير اللساني نشير إلى الصورة بوصفها لغة جديدة، فهي جوهر الفنون البصرية رغم حاجاتها إلى الكلمة والصوت، ويؤكد الباحثون المشتغلون في هذا الحقل " أن الصورة خلقت صورة جديدة واستحوذت على طاقة البصر، فاعتقلت عقله مخيلته، وتطور الأمر في تفاعل اللامرئي في الصورة ولا وعي الإنسان فغيرت حياة العالم فأزالت القيود واخترقت الحدود وكشفت الحقائق.... وهي مللتقى الفنون وهي العتبة التي يقف عليها المتلقى قبل أن يدلف إلى العالم اللامرئي للعمل الفني²³ .

ويعتبر رولان بارت " خير من يمثل سيميولوجيا الدلالة، لأن البحث السيميولوجي لديه هو دراسة الأنظمة و الأنسقة الدالة، فجميع الوقائع والإشكال والأنظمة اللغوية تدل. فهناك من يدل باللغة، وهناك من يدل بدون لغة المعهودة، بيد أن لها لغة خاصة، وما دامت الأنساق والوقائع كلها دالة فلا عيب من تطبيق المقاييس اللسانية على الوقائع غير اللفظية، أي الأنظمة السيميولوجية غير اللسانية لبناء الطرح الدلالي ومن بينها سيميولوجيا فن الرسم، وقد انتقد

بارث في كتابه "عناصر السيميولوجيا" الأطروحة السوسيرية التي تدعو إلى إدماج اللسانيات في السيميولوجيا مبينا أن " اللسانيات ليست فرعاً ولو كان مميزاً من علم العلامات، بل السيميولوجيا هي التي تشكل فرعاً من اللسانيات"²⁴. وعلى حسب بارث فالقراءة التضمينية ترجع إلى الدلالة الحقيقية للدليل ، بمعنى أنها تحيل إلى كون الصورة توحى بما هو أبعد ما تمثله كونها تتعلق بالجانب الإنساني المتصل بالتأثير الذي يولده " الدليل"، حين إلتقائه مع مشاعروأحاسيس المتلقي²⁵.

واليوم أصبحت الصورة الكاريكاتورية تحمل خطاباً إعلامياً شعبياً يهدف إلى تصوير أكثر المواقف والقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي لها علاقة مباشرة بحياة الناس، إذ تختزل الصورة المساحات الشاسعة من الرؤى والأفكار التي قد تحتاج إلى العديد من المقالات والصفحات من أجل إيصال المعلومة، فخطاب الصورة الممتلئ بالرموز والإيحاءات الدلالية صار له الوقع المؤثر الذي يميزه عن خطاب الكلمة.

والكاريكاتور يستخدم أدوات تعبيرية مختلفة لبناء فكرته كالخطوط والألوان والظلال ،... ويتخذ طريقتين لنقل رسالته بكل مكوناتها وأبعادها مسقطاً اللغة أو إرفاق أي تعليق، وقد يقدمها مصحوبة ببعض النصوص أو العبارات أو الكلمات للتعبير عن بعض الأشخاص أو المواقف.

والكاريكاتور في بعده الخطابي يتكون من مرسل الرسالة الرسام ومتلقي الرسالة وهو القراء، وخطاباً وهو النسق اللغوي وغير اللغوي، فإذا نظرنا إلى بنية الخطاب الكاريكاتوري نجد يجمع بين نسقين العلامة اللسانية والأيقونية معاً.

وفي الختام يمكن القول أن الصورة الكاريكاتورية تزيل حواجز اللغة بين الناس، بحيث يتمكن كل واحد من قراءة العلامات التي تحتويها وإعطائها مدلولاً يتوافق مع مرجعيته الفكرية والثقافية، ومن ثم تتحول الصورة إلى نص بصري قابلاً للقراءة والتأويل بغض النظر عن لغته. وبالتالي تمكنت السيميائية من جعل الإنسان يستنطق النص، حيث دخلت السيمياء كل دوائر الخطاب وأوصلت لقراءة كل الخطابات، كما وجدنا أن الكاريكاتور حقلاً سيميائياً غنياً مشحوناً بدلالات تبدأ من كتابة النص وتنتهي بموقف المتفرج وبالتالي لابد لقارئ النص الذي بين يديه أن يولد دلالات وإيماءات، فلغة الكاريكاتور تعتمد على علامات منطوقة وغير منطوقة، وهي علامات بصرية لتبحث السيميائية عن الأنظمة الدلالية للشفرات والعلامات وطرق إنتاج المعنى،

لأن الخطاب البصري يربك القارئ ويدخله في عملية تفكيكية للرموز والحركات التي يتضمنها النص، لأن القارئ ملزم بدراسة هذه الروابط الدلالية ومدى مواءمة كل عنصر لآخر لأن في الصورة يوجد الخطاب اللساني والأيقوني وهو ما يفرض على الباحث القيام بدراسة الروابط التي تجمع بين الصورة والنص المرافق لها.

قائمة المراجع:

- 1- قدور عبد الله ثاني، سيميائية الصورة، مؤسسة الورق للنشر والتوزيع، دط، 2007، عمان، ص100.
- 2- عبد الباسط سند، فن التصوير التلفزيوني، دط، القاهرة، 2009، ص132.
- 3- سعيد بنكراد، السيميائيات وموضوعها، مجلة بحوث سيميائية، عدد 4، 3، جوان، ديسمبر، 2007، ص179.
- 4- محمد الماركي، الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهرتي، المركز الثقافي العربي ط1، 1998، بيروت ص6.
- 5- قدور عبد الله ثاني، مرجع سابق ص21، 20.
- 6- فايزة يخلف، سيميائيات الخطاب والصورة، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2012، ص ص18، 19.
- 7- عبد العزيز حمودة، الخروج عن التيه، دراسة في سلطة النص، مجلة عالم الفكر، عدد 298، الكويت، 2003، ص111.
- 8- الطاهر لوصيف، التداولية اللسانية، مجلة اللغة والأدب، ع8 ص17.
- 9- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط68، 67، 2009، 1.
- 10- حكيمة بوقرومة، التداولية وعلاقتها بعلم الدلالة والسيميائية، ص66.
- 11- سعيد بنكراد، سيميائيات الصورة الإشهارية، "الإشهار والتمثيلات الثقافية"، إريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص31.

- 12- دانيال تشا ندلز، أسس السيميائية، تر: هبة طلال، مركز الدراسات ، بيروت، لبنان، ط
لبنان، ط2008، 1، ص ص98، 97.
- 13- محسن بوعزيزي، السيميولوجيا الإجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان،
ط2010، 1، ص59
- 14 --محمد السרגيني، محاضرات في السيميولوجيا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدرا
البيضاء، ص06.
- 15-رامان سلوم، النظرية الأدبية المعاصرة، تر: سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات
والنشر، ط1996، 1، ص166
- 16- جميل حمداوي، سيميوطيقا الصورة المرئي أو البصري، ص17.
- 17- هيثم هادي الهيتي، الإعلام السياسي والإخباري في الفضائيات، دار أسامة للنشر
والتوزيع، الأردن، 2010، ص103.
- 18 إمبرتوايكو، العلامة، تحليل المفهوم وال-تاريخ، تر: سعيد بنكرا، المركز الثقافي العربي،
بيروت ، الدار البيضاء، ط2007، 1، ص203.
- 19-سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل، مرجع سابق، ص29.
- 20-بيير جيرو، السيميائيات، دراسة الأنساق السيميائية غير اللغوية، تر: منذر عياشي، دار
نينوي، للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2016، ص05.
- 21-أمال قاسمي، سيميائية الصورة الكاركاتورية بين تقنيات القراءة وأليات التأويل، جامعة
خميس مليانة، ص02.
- 22- عبد الحميد جرادات، السيميائيات بين قيمته المعرفية وفن الاستدلال، مجلة
أيقونات، المغرب، العدد، 2011، ص08.
- 23-أحمد جاب الله، الصورة في سيميولوجيا التواصل، محاضرات الملتقى الرابع للسيماء
والنص الأدبي، جامعة بسكرة، نوفمبر، 2006، ص195.
- 24-ساعد ساعد، عبدة صبطي، الصورة الصحفية، دراسة سيمولوجية، المكتب الجامعي
الحديث، 2012، ص72.

25-ساعد ساعد، الصورة الصحفية، مرجع سابق، ص73.